الردّ بالكتابة في الرّواية العربيّة المعاصرة، رواية "تشرّفت برحيلك" لـ فيروز رشّام-أنموذجا

شفيعة أوقاشة

لقد حدثت في الادب المعاصر متغيرات كبيرة، فرضتها معطيات الواقع المعاصر مست شكله ومضمونه على السواء. التي امتدت في ربوع الحياة بأكملها لاسيما الجانب الادبي الذي يأبى الانعزال عن الواقع باعتبار شقيه الشعري والنثري.

ونحن في مداخلتنا هذه سنعرج على الشق النثري المتضمن في الرواية، باعتبارها أهم الأجناس الأدبية السردية النثرية كنطاق واسع تغمره فضاءات زمنية ومكانية متغيرة، تنزرع بداخلها شخصيات وذوات عديدة ومتنوعة، مما أسهم في جعلها روحا جمالية لا تعرف الثبات والاستقرار. ودراستنا للرواية في هذه المداخلة، تركز على محاولة استنطاق جل المواجهات والتحديات الواردة فيها كنص روائي ابداعي معاصر.

تتميز الرواية العربية المعاصرة بتعدد بؤرها المركزية وأسئلتها الكبرى التي تقدمها للقارئ فتجعله يعيش في عالم متمسك بفوضاه، مؤكدة له باستمرار أن كل ما يعيشه لا يمثل الواقع بل هو مجرد عمل متخيل. والمكتبة الروائية العربية المعاصرة تتوزع على جملة من المواضيع التي تعاين الوضع الراهن والواقع المعيش للإنسان العربي المعاصر، والسعي بعدها الى محاولة معالجة تأزمات هذا الانسان والدفع به نحو ادراك واقعه في صورته الحقيقية.

من هنا، عدت الرواية العربية المعاصرة نوعا من الكتابة تتميز بخصائص مرتبطة زمنيا ببداية الألفية الثالثة وما أنتجه الساردون العرب في حوالي العقد ونصف من مطلع القرن الواحد والعشرون، وفنيا بخصائص في الكتابة السردية لم يكن للعرب عهد بها مما جعلها شريحة من واقعنا العربي المعيش. ولما كان الأدب الجزائري جزءا لا يتجزأ من القطر العربي، الى جانب بقية آداب اللغة العربية في العالم العربي، فقد تميز هو الآخر بجملة من الخصائص المركبة والمعقدة أنبتتها صيرورة ثقافية لا مناص منها أسهمت في بناء صورة الأدب الجزائري المعاصر الذي تعددت منابعه وتنوعت مشاربه وأصوله. ومن القضايا المركزية فيه، قضية الكتابة النسائية التي ظلت مهمشة على امتداد تاريخ الأدب العربي. لكن سرعان ما استفاقت شحنات الأنوثة في خوالج المرأة ، فسعت جاهدة نحو اثبات وجودها وخلق مكانة خاصة بها وسط مجتمع أقل ما يقول عنها أنها امرأة لا حول ولا قوة لها. وعلى هذا الأساس، تفاقمت نسبة النساء الآتي اتجهن الى الكتابة للتعبير عن مكبوتاتهنّ ونظراتهن وآراءهن بكل حرية وطلاقة. مما أسهم في لفت الانتباه الى كتاباتهن عالميا بمناصرة قضايهن وجعلهن بذلك عضوا ومكونا مركزيا من مكونات الأدب العربي المعاصر.

من بين الروايات التي عالجت أقرب المواضيع وأهمها لهذه الكتابات النسائية يمكن التطرق لرواية تشرفت برحلك للكاتبة الجزائرية فيروز رشام، وذلك من خلال موضوع المرأة المعنّفة كرد مضمر على ظواهر كثيرة نذكر من بينها: العنف ضد المرأة، مكانة المرأة في الوسط الاجتماعي، الاستبداد، الظلم تراجع الحريات الفردية، الخيانة، الاستغلال المادي للنساء العاملات، الاعتداء وغيرها من أوجه المعاناة والوقائع التي عاشتها المرأة الجزائرية في ظل العشرية السوداء وما بعدها.

هيكل الرواية :

تقع الرواية في ٢٤٤ صفحة، ترصد لنا ما مرت به المرأة الجزائرية في فترة العشرية السوداء من عنف وقسوة ومعاناة من جراء الارهاب والتطرف الديني حاملة على عاتقها قضية ورسالة تمس جميع النساء في مختلف أقطار العالم العربي وما عانته من ظلم ذكوري واجتماعي وقانوني وديني.

المخطط التفصيلي للرواية

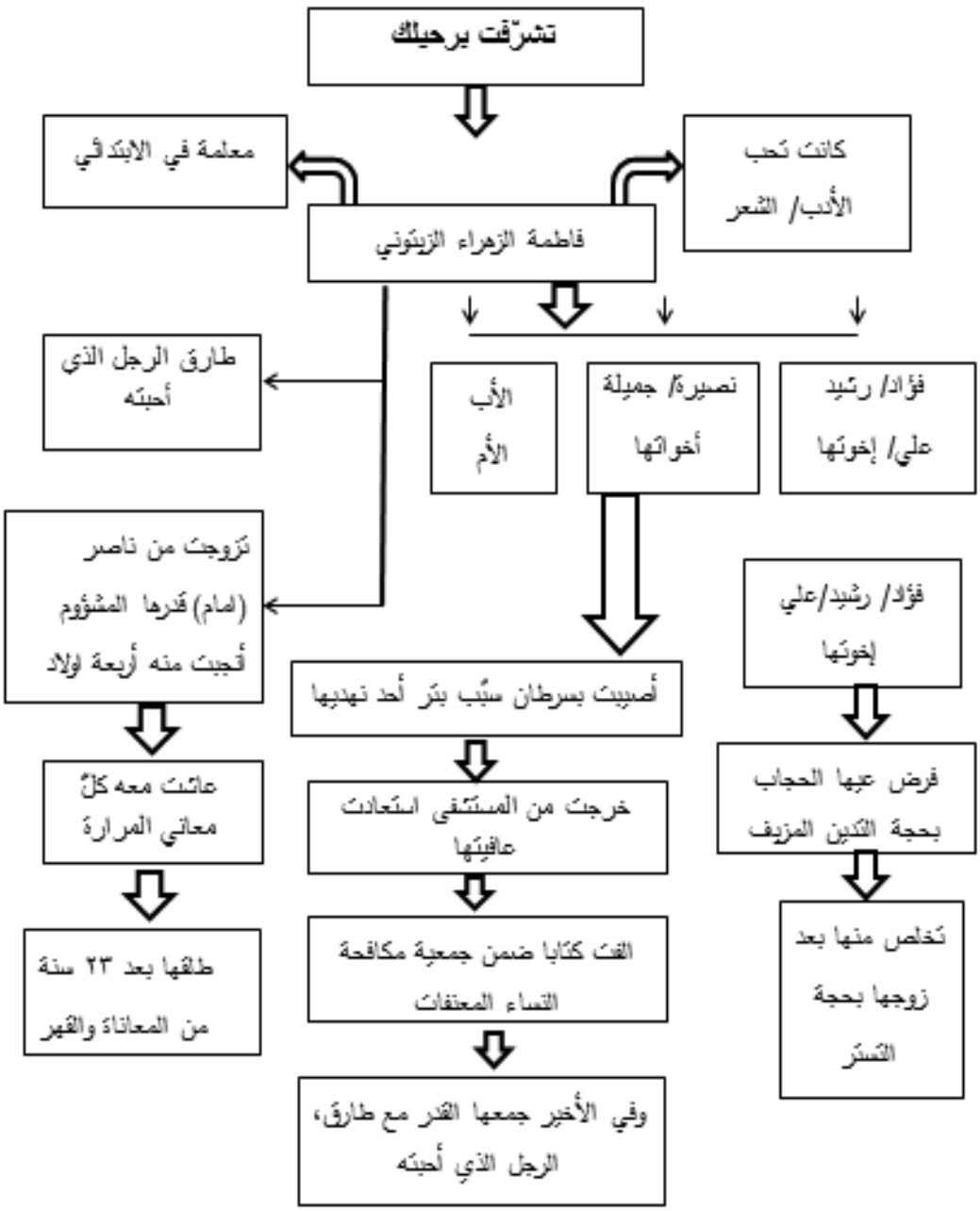

الأقطاب المتصارعة في الرواية

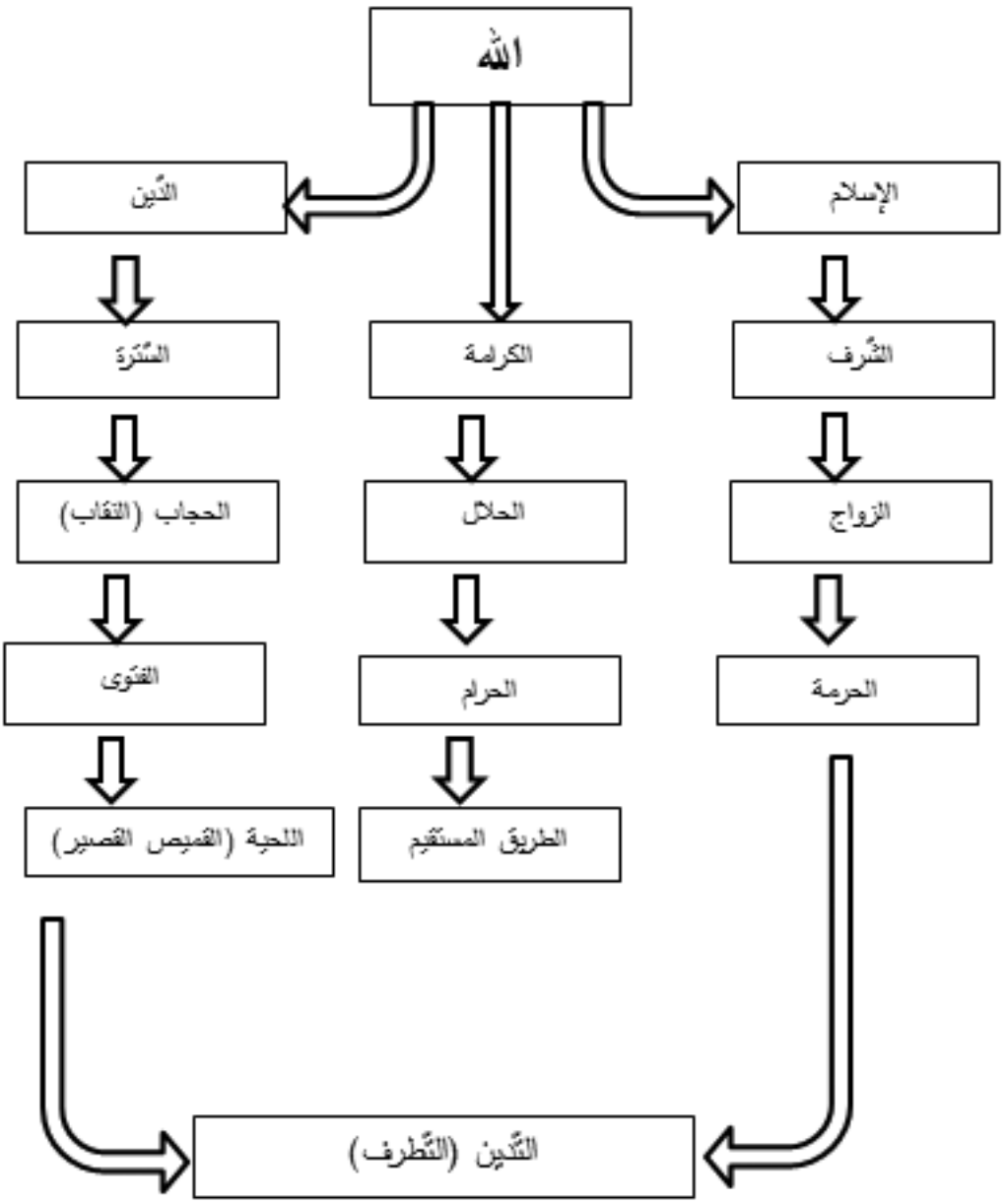

في مفهوم الرد بالكتابة:

يعرف الرد بالكتابة بأنه: الرد على القوي المهيمن، واحياء لجميع مظاهر الثقافة المطموسة أو التي في طريقها أن تطمس تحت لواء الكتابة المقاومة(١).

فالرد بالكتابة من هذا المنظور، وسيلة محاوراتية تستهدف مواجهة الآخر، اما بطريقة مباشرة موجهة، أو بطريقة مضمرة تتضمن مجمل آراء وأفكار ورغبات وردّات فعل الآخر اتجاه مواضيع عدة والتي من بينها: العنف، الارهاب، الاستبداد، الاستعمار وغيرها.

وقد لجأ الروائي العربي المعاصر الى شبكة من الآليات في بناء نصوصه الابداعية من بينها لغته التي يسعى باستمرار نحو تطويعها لما يتوائم وتجاربه الحياتية.

ومن هنا نتساءل: ما هو دور الكتابة في معالجة موضوع المرأة المعنّفة في الرواية النسوية العربية المعاصرة عامة والرواية الجزائرية خاصة؟ وكيف أسهمت في فك مغاليق الجنس اللطيف وخلع قناع التستر والكتمان عن شخصها المرهف والضعيف؟ وما هي صورة المرأة في هذه الرواية مقارنة بصورة الرجل؟ وما هي مكامن الرد فيها؟ وما مسلكها في كل ذلك؟ وأخيرا ما هو البعد الانساني للكتابة من خلال هذه الرواية؟

عتبة العنوان:

مما لا شك فيه أنه قبل الدخول في أية دراسة تختلف باختلاف باحثيها، وتتعدد بتعدد موضوعاتها أن تمر بعدة مسالك استكشافية من شأنها أن تمنح الدراسة طابع التعمق والمصداقية. ولعل أهم موضوع تداوله ومعالجته ودراسته من لدن الباحثين والنقاد، موضوع الرواية باعتبارها أبرز الأجناس لأدبية المعروفة الذي يكاد يغطي، تقريبا، مختلف الدراسات العالمية.

استنادا الى هذا، فان أول مسلك نتخذه في تحليلنا للرواية هو المسلك الذي لا ينبغي لأي باحث أن يتجاوزه أو يغض الطرف عنه انه "عتبة العنوان".

فقد بات من المستحيل الولوج الى عالم الرواية الذي يحتضن سلسلة أحداثها، دون الوقوف عند عتبة عنوانها باعتباره الشفرة الأولى التي يحتك بها القارئ للوهلة الأولى، وبتعبير المثل المغربي:" أخبار الدار على باب الدار"(٢). اذ يستحيل بلوغ مركز البيت دون تخطي وتجاوز عتبته أولا.

وفي ذلك يقول جميل حمداوي: "يعد العنوان نظاما سميائيا ذا أبعاد دلالية وأخرى رمزية، تغري الباحث بتتبع دلالاته، ومحاولة فك شيفرته الرامزة. ومن هنا فقد أولى البحث السيميائي جل عنايته لدراسة العنوانات في النص الأدبي. وقد ظهرت بحوث ودراسات لسانية وتداولية، وآية ذلك أن العنوان هو أول عتبة يمكن أن يطأها الباحث السيميائي قصد استنطاقها واستقرائها بصريا ولسانيا، وعموديا"(٣).

تأسيسا على هذا، جاء عنوان الرواية (تشرفت برحيلك) في شكل تصريح مباشر في مواجهة الآخر المتمثل في الجنس الذكوري بالدرجة الأولى. فما يميز هذه الرواية اذن، هو عنوانها بالدرجة الأولى. إذ يتلبس ذهننا نوع من التيه المنطوي على جملة من الاستفسارات والتوهّمات حول خلفية هذه الجرأة والمواجهة، فمن خلال تفحص مركبات العنوان وتشريحها تلفت انتباهنا مسحة التحدي والوقوف بوجه الآخر تحت لواء أحرف تعبيرية تستكنه خوالج الذات الأنثوية اتجاه قرينها الذكوري الذي يسعى الى طمس جنسها وحجزه في خانة المنفذ للأوامر ليس الا. من خلال اثبات الذات وجعلها ذاتا كاشفة ، فاضحة وأكثر من هذا ذاتا جريئة.

فمن خلال العنوان نلمس الأفق المنزاح عن توقع القارئ لعنوان حساس وعاطفي مرهف، مما يرغمه على متابعة القراءة في سبيل استكشاف طبيعة هذه الذات من خلال التوغل في ثنايا أحداثها الموافقة لهذا العنوان. حيث يبدو عنصر التأنيث جليا الذي نلمسه في كلمة "تشرفت"، الا أن أنوثة الكاتبة أنوثة حساسة وشرسة في الآن ذاته، فهي مصارحة مطلقة بإعلان وشهر سيف اللامبالاة في وجه الرجل المستبد الظالم، والمستغل.

إضافة إلى ما يحمله العنوان من ميزة هامة، والمتمثلة في الجرأة في الطرح، تفردت بها الرواية باعتبارها رواية موجهة لكافة نساء

العالم بأسلوب تحريضي يدفع بالمرأة نحو خلع قناع الذلّ والرّضوخ للرّجل ال المتسلّط الذي يهوى تعذيبها، والسعي بعدها نحو إبراز الجانب الأنثوي النائم داخل شخصيتها إنه الجانب الذي يجب أن يشحن ويعاد تركيبه من جديد. لتستيقظ المرأة وتجد نفسها أمام أناها الحقيقية التي يجب أن تكون عليها .

جاء عنوان الرواية في شكل بوح جلي وخفي في آن، يحمل رسالة وقضية انسانية قبل أن تكون قضية امرأة ، بلسان صارخ يستفهم كيفية استعباد الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا، سعيا بهذا نحو علاج هذه القضية والدعوة الى ضرورة الوقوف عندها وفك عقدتها المتفاقمة باستمرار من خلال التنديد بعدم الكبت في سبيل استيعاب قيمة هذا الجنس البشري وكيفية التّعامل معه.

ان العنوان بطريقته الصريحة هذه يوقظ في نفسية كل امرأة السعي نحو استعادة ما سلب ومازال يسلب منها تحت ذراع الرجل العنيفة التي لا تمتّ للرحمة بأية صلة . من خلال رفع قلمها وفك مغاليق نفسيتها واسترجاع أنوثتها المسلوبة.

بناءا على هذا، كانت أحداث الرواية تفصيلا يفكّ بها القارئ شفرة العنوان باعتباره "عقد قرائي بينه وبين جمهوره وقرّاءه المختلفين"(٤). ضمن قالب اغرائي يرتبط بمضمون الرواية مما يسهم في تقوية نشاط التلقي لدى القارئ.

كان عنوان الرواية الخطوة لأولى التي قدمت من خلالها الكاتبة عملها الابداعي هذا، حيث أوصلت القارئ الى تقصي واستكناه دلالات النص الذي توغل داخله ، فهو أول عتبة يصادفها أمامه كأداة مصاحبة له ومبعدته عن النّيه(٥). في شكل بؤرة مركزية فجّرت العمل الابداعي في صورته الكاملة والمكتملة والتي يشترط فيها التأثير والجذب والاقناع بتعبير مصطفى سلوي(٦).

وقد عدّ العنوان أكثر ثقلا من مضمون الرواية، فرغم وضوحه ومباشرته الا أنه أخذ بالقارئ الى ميدان الحقيقة المتستّر عنها على مرّ تاريخ الأدب العربي. حيث تجمعه والنّص علاقة استكمالية تعكس بشكل كبير ما روته الكاتبة في نصّها هذا ضمن علاقة تأثير وتأثر، أخذ وعطاء، مما يؤكّد استحالة وجود أي نصّ بمعزل عن عنوان يشير اليه.

استنادا على هذا ، تعددت ألسنة الشخصيات داخل الرواية، مماّ أسهم في فهم وتفكيك العنوان رويدا رويدا ضمن أدوار مختلفة عكست اتجاه العمل الفنيّ ككل.

واختيار فيروز رشّام لعنوان "تشرّفت برحيلك" يؤكد غايتها المنشودة ، بتسجيل وترسيخ أحداث روايتها في ذاكرة كل من قرأ روايتها من خلال محاولة كشف الطّبيعة الحقيقية لصورة المرأة في الوسط الذكوري المتمرّد والظّالم. وعليه فانّ نجاح العمل الابداعي متوقف على نجاح العنوان كمعيار أساسي لقياس نجاعة المبدعين على اختلافهم.

مقتطفات الرّد بالكتابة في الرواية :

"وأنقل عن لسان البطلة: قصة كتابي هي أيضا قصة حياتي وقصة حياتي هي قصّة مجتمع وقصّة المجتمع هي في النهاية جزء من التّاريخ ولا أعرف كيف أفصل بين كلّ هذا."

يستنطق هذا المقطع قضية تحقيق العدالة لصالح المرأة كرد على كل مستعبديها على اعتبار أنها جزء لا يتجزأ من المجتمع الذي يعد بدوره جزءا من التاريخ وذلك بوضع كفّة الميزان في المحكّ والقيام بتعديلات تضع المرأة في مكانها المفروض باعتبارها جنسا لطيفا يأبى العنف والقوّة.

- **صورة الرّجل المقنّع في الرّواية (القميص القصير واللّحية الطويلة):**

حيث ردّت من خلال هذه العبارة على هؤلاء اللّذين صيّروا أنفسهم في أبشع الصّور، ولمّقوا ألسنتهم بأغرب الأحكام والحكم. بلا أي بيان وبرهان في صورة رجال متديّنين لا يعرفون معنى للانحراف والطغيان. فالدين ليس هنداما ولا مظهرا، انّما الدّين انسانيّة.

- **صورة الحجاب في الرواية:**

كخطاب موجّه لكلّ من يعتبر السّترة لباسا وهنداما دون أي اعتبار للأفعال وهذا ما تجسّده أخت زوج بطلة هذه الرّواية، والتي كانت

تواعد الرّجال وهي في قمّة السّترة.

- **صورة المعلّمة في الرّواية:**

فالمرأة من خلال هذه الرّواية ليست مجرّد قطعة نقديّة تستهوي جيب الرّجل الطّامع بها، كما أن العمل ليس مجرّد قطع مادية وانّما نفسيّة الانسان وكذا حضوره وأداء دوره في الحياة الانسانية ككل.

والمعلّمة ليست راتبا شهرياً ، كما أنها ليست مجرّدة من الاحاسيس والمشاعر، وإنما هي جسد وروح لا ينفك الواحد عن الآخر، فالعلم ليس مجرد مال بقدر ما هو مبدأ أخلاقي يحقق للذات الإنسانية ذاتها.

- **عاطفة الحب:**

تتلاطم في لرواية مجموعة من الفتاوى وتتحاور فيها العقول الجاهلة وتتسامر فيها لأحكام الشيطانية التي لا تمتّ للإنسانية بصلة. كقضية الشرف الذي يدّعونه، والذي يرفض هذه العلاقة ويضعها في قائمة المحرّمات.

إنّ الحبّ عاطفة لا تناقض الشرف، وإنما الشرف كلّ الشرف لتحقيق العدالة وإعطاء كلّ ذي حقّ حقّه.

- **قضية الزّواج:**

إنّ الزواج باطل ما لم يتحقّق فيه عنصر رضا الطرفين، فكيف نتحدث عن الشرف؟ المرأة ليست صورة ولا خيالا، من طبعها السّكوت، ولكنّ معدنها ليس حجرا، حيث أن لها كل الحقّ في اختيار شريك حياتها باعتبارها أبسط الحقوق التي يمكن أن تُمنح لها.

كما أنّ للزواج شروطه ومبادئه وحرماته التي لا يجب خرقها والتعدي عليها.

- **قضية المرض:**

من طبع المرض أنه مفاجئ، إذ لا يطلب الإذن من أحد ساعة حضوره، كما أن لا عيب فيه ولا حياء، لأنه قضاء وقدر لا خيار فيه.

- **قضية الكتابة:**

إنّ الكتابة ليست أداة للتعبير عن مشاعر أو ايصال هموم، ولا وسيلة للتكسب والاسترزاق بقدر ما هي كيان ووجود وولادة وتحقق.

قضية الإرادة: الغردة صنع المعجزات، تحقق المساواة، تبني الذات، تسوّي بين المراتب وتستردّ المسلوبات.

وهكذا، ترتسم في آخر الرواية، معالم امرأة تخترق نفسها لتتخلق من جديد، وهي صورة المرأة الماثلة داخل هذه الرواية.

قائمة المراجع:

١- بيل أشكروفت، غاريث غريفيث، هيلين تيفن، الرد بالكتابة، النظرية والتطبيق في آدب المستعمرات القديمة تر: شهرت العالم، المنظمة العربية للترجمة، ٢٠٠٦.

٢- عبد الحق بلعابد، عتبات (جيرار جنيت من النص إلى التناص)، الدار العربية للعلوم، ناشرون ومنشورات الاختلاف، بيروت، الجزائر، ٢٠٠٨، ص ١٣.

٣ - بسام قطوس: سيمياء العنوان، وزارة الثقافة، عمان، ٢٠٠١، ص ٣٣.

٤ - عبد الحق بلعابد، (جرار جنيت من النص إلى التناص)، مرجع سابق، ص ٧١.

٥ - ينظر: محمد عبد المطلب: بلاغة السرد، الهيئة العامة لقصور الثقافة، سلسلة كتابات نقدية ٢٠٠١ ص ١٨.

٦ - ينظر: مصطفى سلوي، عتبات النص، المفهوم والموقعية والوظائف، منشورات كلية الداب والعلوم الإنسانية، وجدة، سلسلة بحوث ودراسات، المغرب، ٢٠٠٣، ص ١٦٤.